رحلة الشاعر الصعلوك بحثا عن السعادة

أ. حفصة جعيط
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الجزائر

ملخص:

لا يخلو كائن بشري من نزوع إلى السعادة وإن اختلفت وسائل التعبير والبحث عنها لارتباطها بطبيعة النفس البشرية الميالة إلى المطالب الأفقية.

عصفت المنظومة الاجتماعية الجاهلية بحريات أفرادها وكدرت سعادتهم فبرزت فئة من الشعراء ترفض الانصياع لقانون المنظومة الجائر مؤثرة حياة التصعلك، وانقطع التواصل بينهما وتحول إلى اغتراب دفع هؤلاء إلى هجرة الجنس البشري وإيثار الفيافي ومقاسمة الحيوان عيشه ليستعيضوا به عن الإنسان ويتواصلوا معه. وما حزّ في نفوسهم أن هذه المنظومة سلطت عليهم قهرها لجنايات لم يرتكبوه سوى أنهم تمردوا على أنساق جامدة تحولت إلى مقدسات تحجر على حرياتهم وتبيد ذواتهم.

امتطى هؤلاء القوة ليستعيدوا ذواتهم المسلوبة وأعناقهم مشرئبة إلى سعادة حرموا نعيمها بينما يرفل فيها غيرهم. كان هؤلاء يترعون إلى تأسيس مجتمع فاضل يحقق التوافق لأفراده ويقبر قساوة الحياة ويبعث المثل العليا، ولكن النظرة البصيرة أعوزتهم ففشلت ميكانزمات دفاعهم وآل أمرهم إلى الخيبة واقترنت تسميتهم بالصعلكة.

Résumé

Chaque individu est enclin à la quête du bonheur et toute conscience sociale entreprend selon sa sensibilité cette aspiration, en relation intime avec la nature humaine qui ne cesse d'aspirer à un meilleur statut.

La structure sociale anté-islamique restreignait les libertés, ce qui a touché à une catégorie de poètes et a entrainé une coupure entre eux et cette structure engendrant une forme de vagabondage et d'aliénations chez eux.

Cette relation antinomique a eu comme effet la désertion de ces poètes vagabonds de la cité vers les lieux du désert, préférant vivre

Wondershare™
PDF Editor

une austérité avec les animaux plutôt que de subir les vexations du groupe social citadin. Marginalisés, ils ont opté pour une violence manifeste envers les hommes.

Cette conception de vie basée sur la violence, et considérée par ces poètes comme étant le seul recours à une société idéale s'est montrée défective.

1- السعادة مطلب بشري

تعدّ السعادة من المفاهيم التي أعجزت الفكر الإنساني ولم يستطع الوقوف على حقيقتها لارتباطها بمشارب البشر وتلونها بفلسفاتهم في الحياة. ففي الإنسان طاقة كامنة تدفعه إلى التدرج في المطالب، فكلّما تحقّق له مطمح اشرأب عنقه إلى آخر، ولعلّ الأمر يعود إلى تركيب نفسيته وطبيعة عقله وحكمة وجوده. فهو كائن متحرّك في وجود لا يعرف السكون، وحركته تشمل وجوده الفيزيوليجي والسيكولوجي حيث ينتقل من مرحلة إلى أخرى يتبعها تطوّر في البحث عمّا يلائم تلك المرحلة،لأنّ مبدأ الصيرورة يُخضع الوجود لنواميسه ولا أحد يستطيع أن يتحدّاه، فالوجود حركة وحياة، والجمود موت، وهذا ما تأباه الطبيعة نفسها.

إنّ الإنسان كائن حيّ غريب في جوهره، أعجز الدارسين وجوده النفسي المعقّد، فقد حاول علماء النفس اقتحام أسرار النفس البشرية والكشف عن خباياها، ولكنّها ظلّت في حصونها المنيعة«فالطبيعة السيكولوجية للإنسان بصفتها وحدة عضوية،حيث فيها تحدث عملية متواصلة من دورات الهدم والبناء تشبه وتحتوي على كلّ الخصائص لعملية النموّ التي تجدها في عالم الطّبيعة»[1].

هذه المطالب التصاعدية للإنسان مردّها اختلاف النوع البشري عن سائر الحيوانات وسموّ مرتبته عليها، فالحيوان يعيش الماضي في شكل خبرة للحاضر دون أن تتجاوز قدرته هذا النطاق، لأنّ الطبيعة لم تزوده بقوة مخيلة يواجه بها مقبلات الأيام، فيأتي عليه الزمن وتطمره السنون. وفي هذا المجال يذهب فيلسوف الإسلام أبو نصر الفارابي إلى أنّ « للإنسان من جملة الحيوان خواصا بأنّ له نفسا تظهر منها قوى تفعل أفعالها بالآلات الجسمانية،وله زيادة قوّة بأن يفعل لا بآلة جسمانية وتلك قوّة العقل»[2]. و مادامت طبيعة البشر تملي عليهم

Wondershare PDF Editor

النظر من الحاضر إلى المستقبل الأفضل فإن الشاعر الصعلوك قبل الإسلام تمرد على أصناف استبداد أدخلته في تعارض مع سلطة المجتمع فهام على وجهه في الفيافي باحثا عن الفردوس المفقود.

جوهر الصعلكة

سن المجتمع الجاهلي قوانين جائرة رسخها في وعي القبيلة تسلب الفرد هويته، يخر لها القوم طائعين، وكل مسعى لتحريكها والخروج من منظومة القطيع لإثبات هوية الذات، والبحث عن وجود إنساني أفضل يعد كسرا لأنماط تحتل مكان المقدس يجر على صاحبه أقسى عقوبات المروق، وتبعا لهذه المبادئ المعيارية الجائرة حُشرت الفئة المباينة بتفكيرها وسلوكها للهيئة الاجتماعية في دائرة الزيغ الخلقي، يقول د.جواد علي:« كأنّ الرعية سواد من ماشية، عليها إطاعة سوط الحاكم وأوامره، دون أن يكون لها حق في إبداء الرأي...و إلاّ عُدّ الخارج على نداء الجماعة والمخالف لقرار رؤساء الأسرة أو الحي أو القبيلة خارجا على القانون وعلى العصبية فاستحق بذلك واجب خلعه من عصبية القبيلة له وطرده من قومه»[3].

وإذا كان من طبيعة المبدع خرق الأنساق فان فئة من الشعراء الجاهليين يحملون رؤى خاصة طفحت نفوسهم ثورة، فأحسوا بضرورة هدم قيم بدت لهم سالبة وبناء نظام قيم يستجيب لحرية الإنسان، وأرادوا أن يستقطبوا أنظار من كانوا يقفون وراء تعارض ديالكتيك نفوسهم وسلطة المجتمع فدخلوا في لا توافق مع البنية الاجتماعية بلغ حد التصادم. فكان من أمرهم أن دفعوا ضريبة قيادة التحرك بامتياز إذ خلخلت الذات الجمعية مفهوم التمرد من الدلالة الإيجابية إلى المعنى المفارق فألحقت تسميتهم بأصناف حيوانات مطوقة بالشر حيث ورد في القاموس المحيط أن« ذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم...وذؤبان العرب أيضا صعاليكها الذين يتلصصون»[4] والمفهوم نفسه في اللسان" يقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان لأنهم كالذئاب» [5].

وما يثير الغرابة أن الهيئة الاجتماعية تقمصت ثنائية الدور، فهي التي أخصبت تربة التمرّد وهي المكلفة بالقصاص ممن مسّهم الحيف لا من كان

wondershare™
PDF Editor

وراءه. فقد وُلّي إمرة القبائل من كانوا يلتمسون السند من أفراد العشيرة الغلاظ مشدودين بالنسب فإن تمرّد أحد أدرج في حكم الآبق، يحمل تبعات عصيانه.

يلعب هؤلاء الأشداء بالمظهر الديني والنسب، وهذه السلطة أقصر من أن تُظِلّ الناس بجناح الحماية وأوْهَى أن تكفل للمهازيل حقّهم في الوجود، حيث شمل الضيم الذكر والأنثى،وكلّ من وهن وسرى في أطرافه الضعف. ولا يستبعد أن يكون كثير من هؤلاء الذين جردوا من كينونتهم ومن تربطهم بهم عواطف متجانسة وشعور بانهيار عام، قد استثارتهم مرارة الجور وتاقوا إلى التحرر ليلجوا عالما أفضل، ولكنّهم فضّلوا الانطواء وكأنّهم رشّحوا من يزيح عنهم جور عصر حالك، كلّهم أجمعون تجاذبتهم مشاعر استقلال الذات من التحلّل الذي كان يوجّه المجتمع ولكن النابهين مثل الشعراء الصعاليك لم يشعروا بانقطاع أسباب النجاة.

فرضت سلطة القبيلة على بعض أبنائها أعرافا أوجبت عليهم إطاعتها وتنفيذها[6]وتقسيما أفقد هؤلاء حريتهم وسعادتهم وجعلهم أذلاء،«والحرية هي الصفة الأولى لوجود الذات»[7]، وهي شبه فطرة في العربي إذ كان شديد التعلق بها ولهذا العامل الفضل في مقاومته الاسترقاق لدرجة أثارت إعجاب مؤرخين مثل هيرودوتس[8].كان منهم الصرحاء وهم أبناء الدم النقي الذين ينتمون إلى الأب الواحد[9]، ولكنها نبذت وجودهم بالطرد أو الخلع لأنهم أبوا أن يعيشوا ضائعي القصد، ويتحوّلوا إلى أوراق تتقاذفها الرّياح الأمر الذي يبيد المعني الرّمزي لحياتهم، بينما تحدد وجود المرء الحقيقي قراراته وخياراته[10]. وسعوا إلى إثبات وجودهم الإنساني خاصة أن الفروسية والمغامرة طبعت حياة العربي فرأت القبيلة الرافضة لمفهوم تدفق الزمن،المحافظة على منظومة وعي سكونية القوانين و تكرارها رأت في سلوكهم كسرا لما سنته، ومن هؤلاء حاجز الأزدي و قيس بن الحدادية.

يقول جواد علي في تفسيره لهذه الظاهرة:«لا أستبعد أن تكون للمغامرة ولإثبات الشخصية، دخل أيضا في حدوث الصعلكة وفي تمرد الشباب على مجتمعهم،على غرار ما نجده اليوم من تمرد على مجتمعاتهم، لإثبات وجودهم

Wondershare PDF Editor

وشخصيتهم في هذه المجتمعات، بطريقة العبث بالعرف والعادات وبعدم المبالاة لأوامر العائلة والمجتمع، مما يجعلهم يسيرون سيرة الصعاليك في ذلك الوقت»[11].

ولكن المتأمل للأعراف في كل زمن ومكان يعثر بينها على ما يكبل الفرد ويسحق إرادته فيجعل من الذات الفردية منصهرة في الذات الجمعية، بها يتأكد وجودها أو يتلاشى.

أما الفئة التي ضاقت بالجور فتمثلها طبقة السودان أو الغرابيب الذين لم يلحقوا بآبائهم إلا في المظهر وهم من دم القبيلة وباختيارها تم وجودهم، إلاّ أنها لم تدرك سر التنوع في الطبيعة فمجت بشرتهم السوداء لأن«العرب كانوا يبغضون اللون الأسود»[12]، وسمتهم أغربة وعلى أساس لونهم تم ترتيبهم في أدنى سلم اجتماعي وهذه حياة ذل، والعربي كان يأبى الضيم ويعدّ الهوان مما يلازم الحمار والوتد، قال المتلمس الضبعي :

إنّ الهـوانَ حمـار القوم يعرفـهُ والحرّ ينـكره والرسـلة الأجـد

ولن يقيـم على خسـف يسـام به إلاّ الأذلان غيـر الأهل والوتـد[13]

وتنكرت لهم فوجدوا أنفسهم أمام مقاومة جناية لم يقترفوها، فلم ينعم بالحرية الحقيقية من أبناء الإماء السود إلا الأقوياء الفرسان [14] أي من يستخدمون في درء الأخطار عن القبيلة شأنهم شأن أي شيء مادي يُحتمى به. وفيما يذكر بعض الإخباريين فإن البيئة العربية غرست روح التنافر بين الأفراد وقادت فئات إلى الإحساس بالاغتراب فالانبتار، فقد أطلقت أسماء تميز العربي صريح النسب من الهجين والمولى حتى أصبح يرمز اسم المولى إلى الخسة والذلة، ومما يقوي صحة الرأي أن عبارة(يا ابن حمراء العجان أي يا ابن الأمة)[15] كان يقصد منها شتم نسب المولى. وينحدر بعض العرب من أصل إفريقي امتزجوا بالعرب الخلص وتعربوا واشتهروا بالشجاعة والإقدام[16] لكنهم لم يتوافقوا ومنظومة اجتماعية تنظر إليهم على أنهم أدنى منزلة ومكانة[17]. ومن هؤلاء السليك بن السلكة السعدي والشنفرى و تأبط شرا وفي هذه التسمية المتأبدة أقوى دلالة على الظلم الاجتماعي.

Wondershare
PDF Editor

ونذرت الفئة الثالثة من المتمردين النفس لمجابهة بنية المجتمع الطبقية الجائرة حيث تنعم فئة بالمال الوفير وتكابد أخرى ألم الفاقة ومثّلها عروة بن الورد. إن اتجاه هؤلاء« إلى الصعلكة لم يكن مجرد الحصول على لقمة العيش،أو الوصول إلى الغنى، وإنّما كان- مع ذلك - يحمل الرغبة في إثبات كيان لهم في المجتمع»[18]. و أقسى ما يتعرض له الصعلوك التشهير بخطيئته وحرمانه من الدم في مواسم الحج والأسواق حيث يعلن خلع الخلعاء[19] بدل التفكير في تأديبهم وتهذيبهم.

اهتزت كرامة الشاعر الصعلوك وقد أبيد حقه، فهام في مناكب الأرض يغتصب الرزق ممن كانت أيديهم العليا فغصبوه حقه معتبرا نفسه سلطة رادعة باعتبار أن لا سلطة يحتكم إليها الناس غير صليل السيوف، وفي هذا المعنى يقول الشنفرى:

وإنّي إذَا خَامَ* الجَبَانُ عن الرَّدَى فلي حيث يَخْشى أنْ يُجَاوِزَ مِخْسَفُ[20]

لم يعد هؤلاء الشعراء يحملون رجاء في هذه المنظومة التي لم تقم لهم وزنا، فتحولوا إلى اختيار أسلوب مجابهة،يحركهم هدف يقف خلف دوافع تمردهم، والهدف وفق الدراسات النفسية هو العامل الحاسم في استثارة الدوافع[21]، فليست الشراسة و المشاغبة محركة لهذا التمرد بل هي الرغبة في تحقيق السعادة مثل سائر أفراد النوع البشري.ولا نتصور أن هذا المطمح لا يسكن أغوار أي كائن بشري، فالسعادة سوف ستظلّ حلم الأفراد والأمم بتباين أشكال البحث عنها، والمسالكّ إليها، ومستوى الشعوب من التمدّن، ووعي الأفراد بلبّها، ومستوى تفكيرهم وما بلغوه من الهوس.

نزوع نفس الشاعر الصعلوك إلى مجتمع فاضل

لم يكن للشاعر الصعلوك حظ الاتصال بمعين الفلسفة لكنه من طبقة متميزة،هاله نظام سائد يجافي العدالة الاجتماعية والعقل والحرية، تديره عصبة من الأقوياء الأشداء تضعف قبضة الضعفاء،

فأراد أن يثبّت أركان نظام جديد يغير به أسلوب الحياة، ويتدرج بالهيئة إلى الاستقرار وحياة أكثر إشراقا وطمأنينة، حيث تعلو الفضيلة على المال فلا يصبح

Wondershare PDF Editor

مقياس تقدير للرجال. يطعن عروة بن الورد في ضلال قومه وأحكامهم المبنية على أساس الثروة مستندا إلى ما ينهض بالعلاقات الاجتماعية:

مـــا بالثّـــرَاءِ يَسُـــودُ كلُّ مسَـــوَّدٍ مُثْـــرٍ، ولَكِـــنْ بالفعَالِ يَسُـــودُ
بَـــلْ لا أُكَاثِرُ صَـــاحِبِي في يُسْرِهِ وأُصِـــدُّ إذْ في عيشِـــهِ تَصْـــرِيدُ
فإذَا غَنِيـــتُ ، فـــإنّ جـــارِي نَيْلُـــهُ منْ نائِـــلِي، و ميسَّـــرِي معْهُودُ[22]

رأى الشاعر أن احتكام المنظومة الاجتماعية إلى مثل هذه المفاهيم البالية دافع إلى الاضطراب، ونعتقد أن النفور من الفوضى مسعى إنساني، فقد ورد في الفكر الأسطوري البابلي أن الترتيب والتمسك بعرى النظام سبيل السعادة، أما الفوضى فهي التعاسة عينها،

فوجه الإنسان إلى التجرد للنظر في نظام الوجود ودقة سيره والاقتداء به. ففي أسطورة (إينوما إيليش) أنّ مردوك«أمر القمر اطلَعْ، وكلّفه بالليل، وجعله من كائنات الظلام، لقياس الزمن،وراح يزيّنه كلّ شهر بتاج. في مستهلّ الشهر، إذ تطلع في السماء، ليقس قرناك أياما ستّة ، وليظهر نصف تاجك في اليوم السابع» [23].

لم ترتق رؤية هؤلاء الشعراء إلى المستوى الفلسفي مثل أفلاطون أو أوغسطين أو الفارابي، ويستبعد اتصالهم بالفكر الفلسفي لأن التاريخ لا يضع بين أيدينا ما يسوغ لنا افتراض أخذهم بتصور فلسفي ما، فإن أفاض العرب في ذكر حكمائهم عهدئذ فالحكمة غير الفلسفة [24]، لكن الراجح أنهم تصورا واقعا أفضلَ يخرج من نطاق التأملات إلى التحقيق بسلطان القوة التي ترعرعوا في حومتها. ولهذا النزوع إلى العنف ما يبرره في الدراسات السيكولوجية حيث أثبت علماء نفسية الطفل أن الإنسان هو حصيلة طفولته الأولى ويظل أسيرها مهما حاول التحرر من سلطان امتدادها[25]، ولم ينكر مبدع باختلاف الأزمنة أثر الماضي في شحن ذاكرته بصور تستقر في اللاشعور وتوجه سلوكه حيث يقول نزار قباني:«الطفولة هي المفتاح إلى شخصيتي. وإلى أدبي. وكل محاولة لفهمي خارج دائرة الطفولة، هي محاولة فاشلة» [26].

wondershare™
PDF Editor

إنّ ضم حركة الصعاليك إلى الانحرافات الاجتماعية يعد تجاوزا للحقيقة، فهم فئة من المبدعين يبحثون عما يصون الكرامة الإنسانية ويأملون تأسيس مجتمع نقيض للذي سامهم خسف الفقر والتفاوت الاجتماعي وقيد ذواتهم وأسلمهم إلى اغتراب بترهم عن مجتمعهم. فلا يخفي تأبط شرّا احترافه الصعلكة و تفضيلها على إذلال عنقه للأثرياء، وقد ارتد عن العصبية القبلية التي كانت شريعة القوم وتحول إلى عدو لرابطة دم تهدر كرامة الإنسان، ولم يكظم ما يضمره لأهله، بدوا وحضرا، من أحقاد مما يحيل إلى مظالم بسطت نفوذها على الناس :

ويَوْمًا على أَهْلِ المَوَاشِي ، و تَارَةً لأَهْلِ رَكِيبٍ منْ تَمِيـــل و سُنْبُـــلِ[27]

ويصف اغتياظه عليهم، فيستحضر صورا مخزية تكشف عن أثرتهم وهدرهم القيم الإنسانية من خلال ثنائية ضدية بين مثل عليا يؤمن بها وقيم ينفر منها، فهو مطارد لأنه يبتغي قوت يومه بينما ينام هؤلاء رافلين في السعادة غير آبهين بمثله من المعدمين:

أَ أَطْرُدُ نَهْبًا أَخِرَ اللَّيْلِ أَبْتَغِي غُلاَلَةَ يَوْمٍ أَنْ تَعُوقَ العَوائِقُ؟
لأَطْرُدُ نَهْبًا ، أَوْ نَزُورُ بِفِتْيَةٍ بِإيمانهم سُمْرُ القنا و العقائِقُ[28]

يعد بعض الدارسين مثل هذا الألم آية سمو روحي، يقول ندرة اليازجي:«الألم الإنساني ألم إيجابي يرفع الإنسان في درجات إنسانيته ليصل إلى روحانيته.فلا يتألم إلاّ العظيم، أمّا الأناني فإنّه يعتبر الموضوع مجرد أمر اجتماعيّ واقعي»[29].

سما الشعراء الصعاليك إلى القيم الإنسانية الراقية من عفة وشيم كريمة ومروءة فنزلوا بها من المستوى النظري إلى واقعهم الجحيمي لأحداث النقلة فيه، فقد ورد عن الأصفهاني أن العرب كانوا إذا حلت بهم السنة الشهباء تركوا في ديارهم المريض والكبير والضعيف « وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة فيحفر لهم الأسراب...ويكسبهم،ومن قوي منهم... خرج معه فأغار، وجعل لأصحابه

Wondershare PDF Editor

الباقين في ذلك نصيبا،حتى إذا أخصب الناس وألبنوا...ألحق كل إنسان بأهله»[30].

لم يستكن هؤلاء لهيئة أساءت توزيع المال فركزته في فئة قليلة وأوقفته عليها لذلك رأى بعض الدارسين أن حلول الصعاليك أقرب إلى الفكر الاشتراكي، تهدف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي بين الأثرياء والمعدمين[31]. فلا يحتكم عروة بن الورد الى سلطان السيف وحده في تحقيق السعادة الجمعية بل تنضوي تحت لواء هذا السلاح قوة قهر الذات الفردية ليبلغ أوج الطمأنينة، فيشارك الفقراء في إنائه، ولا يرهبه البرد فينفض يديه من الفضيلة بل يسد الماء البارد مسد طعامه ليقاسم القوم جسمه ويحقق بذلك السعادة القصوى التي تجشم عناء التطواف في القيافي بحثا عنها:

إنّي امْرُؤ عافي إنائيَ شرْكَةٌ وأنْتَ امروٌ عافي إنائِكَ واحَدُ
أ تهْزَأُ منّي أنْ سَمِنْتُ وأنْ ترى بِجِسْمِي مَسَّ الحق و الحقُّ جاهِدُ
أفَرِّقُ جِسْمِي في جُسُومٍ كَثِيرةٍ وأحْسُو قَراحَ الماءِ و الماء بارِدُ[32]

شق على نفسه أن يرى المترفين ينعمون بعيش مريء بينما لا يظفر الفقراء بالقليل من عنايتهم فلاذ بعالم يمسح منه الجور و وضع الفكر على محك التجربة فأغار على الأغنياء البخلاء ليجود بالمال المسلوب على الموتورين:

لَعَلَّ انْطِلاقِي في البِلادِ ورِحْلَتِي و شَدِّي حيَازِيمَ المطِيَةِ بالرَّحلِ
سَيَدْفَعُنِي يَوْماً إلَى رَبِّ هَجْمَةٍ يَدَافِعُ عَنْهَا بالعُقُوقِ و بالبُخْلِ[33]

و لا نتصور أن هذه النصوص تنقل الحقائق المطلقة، فالفن يحاكي الواقع ولا يطابقه مطابقة تامة،

لأنّ الإنسان لا يستجيب للبيئة الفيزيقية كما هي عليه في الواقع، بل يستجيب للبيئة كما يحسها و يراها أي كما يدركها، وهي ما يسمى بالبيئة السيكوليجية[34] وهذا لا يعني أن هؤلاء لم يواجهوا الأعاصير، فأشعارهم لا تخلو من الحديث عن الفقر والقهر والتشرد، مما دفعهم إلى امتهان القوة للتحرر من عبودية المجتمع والعثور على الذات.

wondershare PDF Editor

يتوق الشاعر الصعلوك إلى السعادة ولا يبالي بالحتف مسدلا على حب حياته المعكرة ستارا كثيفا، لا يشفي غله إلاّ ولوج عالم مباين لواقعه، يقول الشنفرى :

إِذَا مَا أَتَتْنِـــي مِيتَتِي لَمْ أُبَالِهَا ولَمْ تَذْرِ خَـــالاَتِي الدُّمُـــوعَ و عَمَّاتِي [35]

دفع جور المنظومة الاجتماعية بعض الشعراء الصعاليك إلى الانبتار من مجتمع البشر والتواصل بالحيوان فآثروا صحبته على بشر خالفوا طبيعتهم وألفوا الشرور فانتفى فيهم الأمان، يقول الأحيمر السعدي بلهجة الساخط على البشر والضجر من خروجهم عن فطرتهم :

عَـــوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بالذِّئْبِ إِذْ عَوَى و صَوَّتَ إِنْسَـــانٌ فَكِدْتُ أَطِيـــرُ[36]

أسقط هؤلاء ثورتهم على فضائهم المنبوذ وشحنوا الفيافي بدلالة الارتياح والطمأنينة إذ وجدوا في الوحوش أنيسا استعاضوا به عن أفراد مجتمع انفصلوا عن إنسانيتهم، فعبر الشنفرى عن هذه المفارقة بين فضاء الحرية بين الحيوان و العبودية بين البشر:

أَقِيمُـــوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيَّكُـــم فَإِنِّي إِلَى أَهْلِ سِـــوَاكُمْ لأَمْيَـــلُ

ولي دونَـــكُمْ أَهْلُونَ سِيِّـــدٌ عملَس وأَرْقَـــطُ زُهلول وعَـــرفاءُ جيَـــــالُ

هُمُ الأَهْـــلُ لا مُسْتَـــوْدَعُ السِّرِّ ذَائِعٌ لديْهم ولا الجاني بما جرَّ يخـــذُلُ[37]

نظر هؤلاء إلى المستقبل المنير دون وعي قويّ لكيفية بلوغ الغاية، فانتهجوا السّطو شريعة يقتصون به ممّن يعتقدونهم خلف الحجر على حرياتهم وفقدهم لذة السعادة، ولكن هذا التمرد اصطدم بسلطان شديد، شأن أي عمل تحبطه الفردية وإن كانت الغاية جمعية. كان النظر إلى بهجة المستقبل يستهوي الصامت والمجهر بثورته، تثير انفعالاته مشاعر التحرر من الحيف، ولكن ثورة التجديد المرتكنة إلى المغامرة دون الفكر والتأمل و المبالاة بالعواقب كانت أشبه بمقولة جلجامش:« إنّني مقدم على قتال لا أعرف عاقبته ومزمع على السير في طريق لا أعرف مسالكه»[38]، لم تحدث الانقلاب المرجو، ولم تستطع مقاومة الزمن، أو يفلح هؤلاء في المنافحة عن أهدافهم، بل لقبّوا بالصعاليك وهي من أسمج الأسماء.

Wondershare
PDF Editor

تشهد ذاكرة التاريخ على إخفاق كثير من أشكال التمرد لأسباب تحيط بكل حادثة لأنّ «الأحداث التاريخية معقدة غاية التعقيد، وفيها من الاشتباك ما يصعب معه استخدام العلاقات الثابتة بين مجموعات منها» [39]. وحسب علماء الأنثروبولوجيا والمحلّلين النفسانيين فإن هذا الإخفاق يدفع الجماعة إلى تصورات تبلغ اللامعقول تشي برفضها الاستسلام،فتبحث عن وسيلة تعويضية وقد يكون هذا، في تقديرنا، سر التجاء الرجل الجاهلي إلى الخرافة والأحلام، ويسري الحكم على الأفراد والشعوب، فهي رحلة من العالم الداخلي إلى العالم الخارجي«فما عجزوا عن تحقيقه في عالم الواقع، فقد سلّطوا عليه الخيال، ليحققّوه و لو في الحلم...فكانت قصص ألف ليلة وليلة خير معبر عن هذا الخيال الشعبي، ومن هنا جاء احتشادها بالجنّ والعفاريت والمردة، ويتمنّى أن يحلّ مشكلاته بأيسر السّبل وأسهلها...وهكذا يحققّ الإنسان بالخيال والحلم، وعن طريق السحر والجان ما يعجز عن تحقيقه في الواقع» [40].

خفق قلب الإنسان للسعادة منذ وجوده على البسيطة و أجتهد الفلاسفة والمفكرون في تحديد مفهوم لها ولكنها ظلت حلما عسير التحقق، وهذا ما ينطبق على الشاعر الصعلوك الذي أفنى العمر يلهث وراء سرابها و لكنه لم يظفر بها.

الهوامش

(1)- إرا بروغوف. حلم اليقظة والأسطورة (ضمن كتاب الأساطير والأحلام لجزيف كامبل). دار الكلمة للنشر والتوزيع، دار الشفيق للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى 2001. ص 179 .

2- أبو نصر الفارابي. عيون الحكمة. ص 16 .عن د.جميل صليبة. تاريخ الفلسفة العربية الشركة العالمية للكتاب،

دار الكتاب العلمي. بيروت. الطبعة الثالثة 1995. ص 155.

(3)- علي جواد. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. مكتبة النهضة، بغداد. دار العلم للملايين، بيروت لبنان. الطبعة الثانية 1978.ج4. ص410 .

(4)- الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي.القاموس المحيط . مادة ذأب .دار الفكر بيروت 1983م. مجلد 1 ، ج1 . ص 67.

Wondershare PDF Editor

(5)- ابن منظور. لسان العرب. نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه علي شيري. مادة ذأب. دار إحياء التراث العربي، بيروت. الطبعة الأولى 1988م . مجلد 5. ص14 .

(6)- للاستزادة ينظر: جواد علي. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ج4/ ص 390-399.

(7)- عبد الرحمن بدوي. دراسات في الفلسفة الوجودية. دار الثقافة، بيروت لبنان. الطبعة الثالثة 1973. ص 242.

(8)- المرجع السابق. ص408.

(9)- نفسه . ص 356.

(10)- رتشارد شاخت. الاغتراب. ترجمة كامل يوسف حسين. المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت. الطبعة الأولى 1980.ص263.

(11)- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ج9/ ص602.

(12)- يوسف خليف ،الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . دار المعارف بمصر، القاهرة 1959. ص 108.

(13)- ديوان المتلمس الضبعي، تحقيق حسن كامل الصيرفي. الشركة المصرية 1968. ب1، 4. ص 203.

(14)- المفصل....ج4/ص311.

(15)- الزبيدي . تاج العروس.مادة حمر. مجلد 3/ ص159.

(16)- المفصل...ج4/ص 311.

(17)- أبو عثمان عمرو بن بحر .رسائله. تحقيق عبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت (د.ت). ج1/ص207.

(18)- عبد الحليم حفني. شعر الصعاليك، منهجه وخصائصه. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1979. ص 202.

(19)-)- أبو الفرج الأصفهاني . الأغاني. شرحه و كتب هوامشه الأستاذ سمير جابر .دار الكتب العلمية بيروت لبنان. الطبعة الثانية 1992. ج 8 / ص 53.

Wondershare PDF Editor

(20)- الأغاني. ج1/ ص180.

*وخام: جبن، مخسف من خسف : قطع.

(21)- النحلاوي عبد الرحمن. أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمجتمع . دار الفكر، دمشق سوريا. الطبعة الثانية 1983. ص 105.

(22)- ديوان عروة بن الورد . تحقيق و شرح كرم البستاني . مكتبة صادر، بيروت 1953.ص 182 .

(23)- حسام الدين الألوسي.الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى 1980. ص 180.

(24)- في الفرق بين و الحكمة و الفلسفة يراجع : المفصل...ج8/ ص336-353.

(25)-حسين مؤنس.الحضارة.عالم المعرفة.المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت.العدد الأول 1978. ص23.

(26)-نزار قباني. قصتي مع الشعر. ص114. نقلاً عن: خريستو نجم. النرجسية في شعر نزار قباني.دار الرائد بيروت لبنان. الطبعة الأولى 1938. ص47.

(27)- ديوان تأبَّط شرّاً و أخباره. تحقيق و شرح علي ذو الفقار شاكر. دار الغرب الإسلامي بيروت. الطبعة الأولى 1984م. ص 117 .

(28)- المصدر نفسه : ص 122، 123 .

(29)- ندرة اليازجي. دراسات في المثالية الإنسانية. دار الغربال، دمشق (د.ت). ص95.

(30)- الأغاني: ج 3 / ص 77، 78.

(31)- حفني عبد الحليم. شعر الصعاليك، منهجه و خصائصه. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1979. ص202.

(32)- ديوان عروة: ص 30-31 . الأغاني: ج 1 / ص 180.

(33)- المصدر نفسه: 74 .

wondershare
PDF Editor

(34)- أحمد محمد عبد الخالق، د.عبد الفتاح محمد دويرار.علم النفس،أصوله ومبادئه. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1993. ص152
(35)- الأغاني: ج 21 / ص187.
(36)- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.الشعر والشعراء.تحقيق مصطفى السقا.مطبعة المعاهد.القاهرة 1932. ص 672.
(37)- (لامية العرب) من كتاب الأغاني: ج3 / ص 74.
(38)- ملحمة جلجامش. ترجمة طه باقر. مطبعة دار الحرية بغداد، الطبعة الرابعة 1980. ص102.
(39)- عفّت الشرقاوي . في فلسفة الحضارة الإسلامية . دار النهضة العربية بيروت 1979 . ص 151.
(40)- محمد عزام. أدب الخيال العلمي . دار علاء الدين للنشر والترجمة والتوزيع. دمشق سوريا. الطبعة الأولى 2003. ص 34. .

wondershare™
PDF Editor